

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم صلي على محمد النبي الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد

أما بعد؛

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

ثم أما بعد؛

فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (الدال على الخير كفاعله) .

ويقول صلى الله عليه وسلم: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً)، أو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم .

والسنة الحسنة يدخل فيها أنواع كثيرة إن قلنا أن السنة الحسنة بمعنى أنه أحيا سنة أميتت من سنن النبي صلى الله عليه وسلم إن حمل على سبيل السن في الدين فمعناها لا أنه اخترع سنة بمعنى أنه ابتدع طريقة وإنما سن سنة بأن أحيا سنة قد أميتت كما يومئ إليه سبب ورود هذا الحديث، أو من فعل عملاً صالحاً فاقتدي به غيره لما رآه فعله، كما جاء في سبب ورود هذا الحديث لما جاء قوم من الفقراء وحض النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة على التصديق عليهم، فخرج واحد من المسلمين إلى بيته وعاد بصرة ثقيلة كادت كفه تعجز عنها بل عجزت حتى وضعها أمام النبي صلى الله عليه وسلم حين ذلك اقتدي به من في المسجد وهرعوا إلى بيوتهم وظلت الصدقات تتراكم حتى كان منها كومة عظيمة جداً، هنا تهلل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال هذا الحديث: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة) إلى آخر الحديث.

إذا قلنا في الدنيا فيقول: من اخترع شيء من أمور الدنيا مما يحقق مصالح الشريعة الإسلامية ومقصدها أو ينفع إخوانه المسلمين من صور هذه السنة الحسنة صورة تكررت مع كثير من علماء المسلمين من قبل، حين يتقدم واحد من المسلمين المستفتين إلى بعض أئمة الهدى والعلم بسؤال فيأتي جواب العالم على هذا السؤال في صورة رسالة أو كتاب أو بحث مسبق بحث مستطيل حول هذا الأمر يعم نفعه إلى الأجيال من بعد موت ذلك الرجل يدخل هذا الرجل الذي سن هذه السنة الحسنة في نفس هذا الحديث؛ لأنه تسبب في تصنيف مثل هذا الكتاب، وهذا نجده كثيراً في مقدمة كثير من المصنفات إلوم نحن نقترض أو نفوت بخطابا أرسله الإمام ابن القيم رحمه الله تبارك وتعالى جواباً على أحد الأسئلة التي وردت إليه من رجل ذكي حصيف خبير استطاع أن يصوغ سؤاله في صياغة محكمة وصياغة بارعة لا تخلو من شيء من الإبهام، ولعل السائل يعرف من هو الإمام المحقق شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية رحمه الله فأبهم في السؤال إبهاماً كي يفتح الباب للإمام الجليل كي يفيض مما أفاض الله تبارك وتعالى عليه من العلم والهدى والنور؛ كي ينتفع المسلمون من بعده، وهذا السؤال في الحقيقة لا يكاد يستغني عنه مسلم، وأقول: مسلم؛ لأن كل مسلم ليس بمعصوم، وكما جاء في الحديث: (ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، إن المؤمن خلق مفتتاً تواباً نسباً إذا ذكر ذكر)، أو كما قال صلى الله عليه وسلم، فمن ثم جاء هذا الجواب شاملاً لكل مسلم، ولن يخلو مسلم من حاجة إلى هذا الجواب العظيم نفتح هذه الرسالة لنقرأ جواب ابن القيم ونقرأ أولاً سؤال ذلك الرجل الذي لا نعرف اسمه ولكن الله يعرفه، وهو سبحانه وتعالى القادر على أن يجزيه ويجزي شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله تبارك وتعالى على هذا الجواب النافع العظيم.

سئل الشيخ الإمام العالم العلامة المتقن الحافظ الناقد شمس الدين أبو عبدالله محمد ابن الشيخ الصالح أبي بكر عرف بابن القيم الجوزية المدرسة الجوزية التي أسسها ابن الإمام أبي الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى، كانت تنسب إلى ابن الإمام أبي الفرج ابن الجوزي وكان أبوه قيماً على هذه المدرسة، فلذلك سمى ابن قيم الجوزية وإن رفعت الإضافة تقول: ابن القيم. السؤال: ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين في رجل ابتلي ببليّة، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وأخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق فما يزداد إلا توقفاً وشدة، فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم الله من أعان مبتلي، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أفتونا ماجورين رحمكم الله تعالى كما ترون السؤال فيه إبهام ربما يكون السائل لذلك وحسن نيته تعمد هذا الإبهام؛ كي يعطي فرصة للإمام ابن القيم أن يصول ويجول في ذلك الميدان الذي هو من أعظم فرسانه؛ كي يتحفنا بل ويتصدق علينا بل على الأجيال كلها من بعده بهذا الجواب الرائع الذي سُمّي فيما بعد: كتاب (الداء والدواء) أو سُمّي باسم آخر: (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) .

فأجاب الشيخ الإمام العالم شيخ الإسلام مفتي المسلمين شمس الدين أبو عبدالله محمد ابن أبي بكر أيوب إمام المدرسة الجوزية رحمه الله تعالى:

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب فاستضافوهم - يعني: طلبوا منهم الضيافة - فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء لم يستطيعوا علاجه بأي شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء يقصدون الصحابة فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيء لا ينفعه شيء فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله، إني لأرقي ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لي جُعلَى - يعني: إن رفيقته تجعلون لي جعلاً، يعني: شيئاً مقابل هذه الرقية - فصالحوهم على قطع من الغنم، فانطلق يتقل عليه وبقراً: □ اَحْمَدُ لِلّٰهِ رَبِّ

الْعُلَمِيْنَ □ ذهب ورقى ذلك الرجل السيد وظل ينقل عنه ويقرأ الحمد لله رب العالمين. فكأنما نشط من عقال كان الرجل كان مقيداً بحبال ثم انفكت هذه الحبال بمجرد أن قرأ وعالجه بكتاب الله تبارك وتعالى. فكأنما نشط من عقال فانطلق يمشي وما به قلبية يعني: ما به علة فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عنه وأعطوهم هذا القطيع من الغنم فقال بعضهم: اقتسموا. فقال: الذي رقى لا نفعل حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال: وما يدريك أنها رقية؟ من أين علمت أن الفاتحة رقية وعلاج؟ ثم قال: قد أصبتم اقتسموا واضربوا لي معكم سهماً .

وهذه أقوي ما يكون في الإقرار: (اقتسموا واضربوا) يعني: هذا حلال لكم، لا تخرجوا من أخذه، (اقتسموا واضربوا لي معكم سهماً) يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: فقد أثر هذا الدواء في هذا الداء حتى كأنه لم يكن، وهو أسهل دواء وأيسره - أسهل دواء الفاتحة - ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة؛ لراى لها تأثيراً عجيبياً في الشفاء ومكثت يقول شيخ الإسلام ابن القيم: ومكثت بمكة مدةً تعتريني أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواءً فكنت أعالج نفسي بالفاتحة فأرى لها تأثيراً عجيبياً فكنت أصف ذلك لمن يشتكي الماء، فكان كثيرٌ منهم يبرأ سريعاً لكن ها هنا أمراً ينبغي التفطن له .

هنا يشرع الإمام ابن القيم في شيء من التفصيل في متعلقات هذا الدواء وشروط الانتفاع به فبعد أن قدم هذه المقدمة من بيان أنه ما أنزل الله من داء إلا أنزل معه شفاء، ثم بين أن الجهل داء وشفاه العلم وسؤال أهل العلم، ثم بين أن أعظم شفاء على الإطلاق هو القرآن الكريم واستدل بقوله: □ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً □ قال عز وجل: □ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ □، ثم بعد ذلك أتى بدليل عملي وواقع عملي حينما حصلت الرقية من ذلك الصحابي لسيد ذلك الحي، فلما رقاها بالفاتحة فقام كأنما نشط من عقال، ثم ذكر تجربته الشخصية أيضاً في التداوي بالفاتحة وبالقرآن الكريم .

يقول: لكن ها هنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات أو الأدعية التي يستشفى بها ويرقى بها هي في نفسها نافعة شافية ولكن تستدعي قبول المحل .

لابد المحل يكون قابل لهذا الدواء تجد بعض الأدوية ممكن الإنسان يأخذ دواء هو عامة الناس ينتفعون به لكن بالنسبة لهو هو ممكن أن يحدث له مثلاً نوع من الحساسية فالمحل غير قابل لهذا الدواء، لابد المحل يكون قابل المحل الذي سيوضع فيه القرآن ويعالج بالقرآن يكون عنده القابلية لهذا العلاج لابد أيضاً من قوة همة الفاعل لابد يكون فيه يقين لأن هذا دواء روعي لابد يكون همته وروحه عالية وهمته مستعدة لقبول هذا الدواء وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء إذا أحد تداوي بالقرآن أو بالأدعية ولم يحصل شفاء فهل العيب في الدواء نفسه أم أسباب من الشخص نفسه؟

يقول: متى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول الطبيعة الشخص نفسه لم يقبل المحل محله غير قابل أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجح فيه الدواء هناك مانع يحول دون الانتفاع بهذا الدواء فمثلاً الإصرار على بعض المعاصي أو غير ذلك من الموانع تمنع انتفاع قلبه بمثل هذا الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية تماماً قد توجد بعض الموانع تمنع من الاستفادة بهذا الدواء .

يقول: فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام يكون عنده يقين كامل وقلبه منشرح لهذا الدواء، أما إذا أحد يتداوى بالقرآن وبهذه الأدوية الروحانية وهو يقول: لنجرب يمكن ينفع، هذا لا ينتفع لابد يكون عنده يقين كامل ولا يتعاطأ على سبيل التجريب يقول: أجرب لكن يكون على يقين كامل أن هذا شفاءً، وهذا دواء.

يقول: فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام وكان للراقي - الشخص الذي يعالج نفسه - نفسٌ فعالةٌ وهمةٌ مؤثرة في إزالة الداء يقول: وكذلك الدعاء مثل ما ذكرنا في الأدوية الحسية كذلك أيضاً العلاج بالدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب .